صحبتي للعلامة محمد بن تاويت الطنجي

رجل العلم والأخلاق

عزة حسن*

لا يخطر اسم العلامة محمد بن تاويت الطنجي ببالي، ولا يذكر في مجلس من المجالس، ولا أسمع به في محفل من المحافل، إلا ويطير بفكري الخيال بعيداً، إلى أيام ماضية جميلة من العمر، غابت وراء حجب كثيفة من عقود السنين. أيام هي أجمل ما عشت من زمن عمري وأزهاها وأغناها بالآمال والأحلام والأعمال، في ظلال فينانة من زهو الشباب وعزه وطموحه ووَثبانه. وقد زاد في جمال هذه الأيام وزهوها وغناها صحبة جميلة كريمة لرجل شهم كريم، اجتمعت في شخصه زينتان اثنتان، زينة الخلق الحميد القوي إلى زينة العلم الجم الغزير. اجتمعت فيه هاتان الحسنتان، فأخرجتاه مُخرجاً فذاً رائعاً، في أجمل

---

* أستاذ بكلية الآداب – جامعة محمد الخامس، الرباط

تركيب، وفي أحسن تقويم. هذا الرجل الشهم الكريم الذي قلَّ نظيره في الرجال هو صاحبي وصديقي المرحوم العلامة محمد بن تاويت الطنجي.

التقيت هذا الرجل الصديق أول مرة في مدينة الإسلام العظمى إستانبول، في عام واحد وخمسين وتسعمائة وألف (1951). فقد سافرت إلى هذه المدينة للمشاركة في مؤتمر المستشرقين الذي عقد هناك في صيف ذلك العام. وفي أيام المؤتمر شهدت الحلقات والندوات المختلفة واستمعت إلى عدد من كبار المستشرقين، أتوا من كل أنحاء الدنيا يحاضرون في شتى موضوعات الأدب العربي واللغة العربية وتاريخ العرب والإسلام، وفي غير ذلك من فنون الثقافة العربية والعلوم الإسلامية.

وكانت هذه الأيام فرصة ثمينة لي لرؤية المعالم الإسلامية الرائعة التي تزخر بها مدينة إستانبول العظيمة، ووسيلة لزيارة خزائنها العديدة، والتعرف والاطلاع على جملة قيمة من مخطوطات تراث العرب والإسلام القديم الذي حفظفيها، وهذه المدينة هي جنة المخطوطات العربية والإسلامية، تضم في خزائنها الكثيرة أكبر عدد من هذه المخطوطات. ولا تضاهيها في ذلك أية مدينة أخرى في العالم كله. فيها سبع وثلاثون خزانة بين كبيرة وصغيرة، بناها السلاطين والصدور العظام والوزراء وغيرهم من شيوخ الإسلام وكبار رجال الدولة العثمانية. وجمعوا فيها هذا التراث الفخم الضخم، ووقفوه لفائدة أهل العلم وطلبة المدارس على أساس أنه تراث الإسلام الذي تكفلوا بحمايته في عهدهم، وصيانته وحفظه من الضياع شذر مذر في كل أصقاع الدنيا. إن ما في خزائن مدينة إستانبول من مخطوطات هذا التراث العظيم يفوق ما في خزائن العالم كلها من آثار هذا التراث في العدد وفي القيمة العلمية والقيمة الأثرية سواء.

وقد أقامت المديرية العامة للمكتبات في وزارة المعارف التركية بسبب عقد مؤتمر المستشرقين معرضاً للمخطوطات، في قاعة فسيحة بجامعة إستانبول، عرضت فيه عدداً وفيراً من نفائس التراث القديم وذخائره في اللغات العربية والتركية والفارسية، وهي اللغات الثلاث الأمهات التي صيغت فيها الثقافة الإسلامية، وكتب فيها تاريخ الإسلام عامة. وكان جل هذه المخطوطات المعروضة من نوادر التراث العربي في

كل فنون الثقافة العربية، بينها نُسخ من المصاحف الشريفة المزينة بأجمل النقوش، وأحلى الزخارف بماء الذهب والألوان الزاهية. وبينها دواوين الشعراء النادرة، وغيرها من كتب العلم الثمينة. وقد كتبت كل هذه المخطوطات النادرة بأحسن الخطوط بأقلام مشاهير الخطاطين وعليها كتابات كثير من كبار العلماء بإجازاتهم لتلاميذهم ورواياتهم وتصحيحاتهم وقراءاتهم عليهم.

ومن حسنات الناس القائمين على أمر هذا المعرض العجيب يومذاك أنهم سمحوا للأعضاء المشاركين في مؤتمر المستشرقين بالنظر في هذه المخطوطات النادرة والاطلاع عليها. ووضعوا أمام كل مخطوط منها كرسياً يجلس عليه من يشاء النظر فيه ومطالعته. وقد فتنني هذا المعرض يومذاك، فقضيت جل أوقاتي في أيام المؤتمر في جنباته، أجلس إلى مخطوطات كتب الأدب واللغة والتاريخ ودواوين الشعراء ساعات طويلة من كل يوم، وأغيب في عالمها المشحون بالسحر والأسرار، ذاهلاً عما يدور حولي من واقع الحياة. وفي هذا المعرض العجيب كانت بداية هوسي بمخطوطات التراث العربي القديم الذي لازمني سنين طويلة من عمري. وما زالت عقابيله في نفسي إلى اليوم.

*****

وذات صباح من أيام المؤتمر كنت جالساً في المعرض أقرأ في مخطوطة كتاب «المراثي» لأبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي[1] فجاء رجل بهي الطلعة، فارع الطول، قد اشتعل رأسه شيباً، وجلل الشعر الأبيض رأسه حتى غطى أذنيه، وتدلى على صفحتي عنقه. وجلس على كرسي إلى جانبي، وراح يقرأ في كتاب مخطوط. وبعد هنيهة مال الرجل إليّ ، وقد وضع إصبعه على كلمة في الكتاب المخطوط الذي يقرأ فيه. فعلمت أنه يريد مني أن أقرأ له هذه الكلمة، فقرأتها له. ولم تمض ساعة حتى مال الرجل إليّ مرة ثانية، وقد وضع إصبعه على كلمة أخرى في الكتاب، فقرأت له الكلمة، كما فعلت في المرة الأولى. ثم ما لبث الرجل أن مال إليّ مرة ثالثة، وقد وضع إصبعه على كلمة أخرى في

---

1 - وهي نسخة فريدة، لا أخت لها في العالم. مكتوبة بخط محمد بن أسد، ومحفوظة في الخزانة السليمانية، ضمن مجموعة رئيس الكتاب مصطفى أفندي برقم 904.

الكتاب. وكانت هذه الكلمة «المعين» مرسومة بالعين. وليس لها معنى في سياق الكلام بهذا الرسم. فتمليت وأنعمت النظر في جملة الكلام ورأيت أن تقرأ الكلمة «المُقَيِّن» بالقاف، وأن الكاتب قد صحّف الكلمة فرسمها بالعين بدل القاف. فقرأت الكلمة بالتصحيح «المقين»، واستقام بها معنى الكلام. والمقين هو الرجل المزين، الذي يتولى تزيين الرجال وتحسينهم يوم الزفاف، وما أشبه ذلك من الأعمال في الأفراح وغيرها من الأحوال. وهي كلمة محدَثة مولَّدَة، أحدثت في العصر العباسي. واشتقاقها من «القين» بمعنى الصانع في العربية[2].

ولما قرأت الكلمة بالتصحيح استوى الرجل في جلسته، وسألني برطانة أعجمية : من أنت، ومن أي البلاد أتيت؟ فقلت : أنا فلان بن فلان، وقد قدمت من دمشق. قال : أنا لا أعرفك. قالها وكأنه يستصغرني. فقلت له : ومن أنت يا سيدي، جزاك الله خيراً، وزاد في عمرك عمراً؟ قال : أنا هلموت ريتر. فقلت : وأنا لا أعرفك! وهنا وثب الرجل قائماً وهو يضحك من قولي ضحكاً عالياً، وأمسك بذراعي وجرني جراً عنيفاً نحو ثلاثة رجال وقفوا صفاً واحداً، وراءنا غير بعيد وهم ينظرون إلينا متبسّمين متعجبين من ضحك الرجل وإمساكه بذراعي. ثم قال لهم : انظروا إلى هذا العالم الصغير القادم من دمشق. إنه يعرف كل شيء ويقول إنه لا يعرفني، أنا هلموت ريتر. وقادني إلى الرجال الثلاثة وأشار إلى أولهم من جهة اليمين، وقال : هذا أحمد آتش مدير معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب بجامعة إستانبول. وأشار إلى الرجل الثاني، وقال : عزيز بركز، المدير العام للمكتبات في تركيا. ثم أشار إلى الرجل الثالث، وقال : أما هذا فهو محمد بن تاويت الطنجي عالم كبير من أهل المغرب.

*****

هذه هي الصورة العجيبة التي التقيت فيها هؤلاء العلماء الأعلامَ وعرفتهم. الأستاذ المستشرق الألماني الكبير هلموت ريتر، والأستاذ الدكتور أحمد آتش، والأستاذ العلامة محمد بن تاويت الطنجي. وقد صاروا جميعاً، في توالي الأيام، أصدقاء أعزاء لي. ثم توفاهم الله

---

2 – «لسان العرب» لابن منظور الإفريقي «قين».

واحداً بعد آخر، في مدينة إستانبول نفسها.

وصاح بنا الأستاذ هلموت ريتر : هيا بنا يا أولاد، أنا أدعوكم إلى الغذاء. وقادنا جميعاً إلى مطعم صغير قريب من مبنى جامعة إستانبول، يقع قبالة جامع السليمانية العظيم الذي بناه المعماري التركي الشهير سنان، بأمر من السلطان سليمان القانوني أعظم سلاطين آل عثمان. وجلسنا إلى مائدة أقيمت على رصيف الطريق، تحت شجرة وارفة الظلال، نأكل ما تلذه العين، وتشتهيه النفس من أطايب الطعام، ونتملى مآذن الجامع الأربعَ الرشيقة التي ذهبت عالية في السماء كأنها أصابع الإيمان امتدت شاهدة بوحدانية الله تعالى وعظمة شأنه. ونعجب من بناء قبابة العالية التي كأنها ذرى سلسلة من جبال شامخة ملأت فضاء الأفق.

وبعد الغذاء استأذن الرجال الثلاثة، وانصرفوا لشأن لهم. وبقينا أنا والعلامة محمد بن تاويت الطنجي جالسين تحت الشجرة الظليلة نتحدث في أمور شهدناها في مؤتمر المستشرقين وفي محاضرات استمعنا إليها، وفي شؤون الكتب ومخطوطات تراث العرب والإسلام الثمينة المخزونة في مدينة إستانبول. وفي شجون الحديث عرفت منه أنه مقيم في القاهرة، وأنه مهتم بآثار العالم المغربي الشهير عبد الرحمن بن خلدون، يسعى لجمع نسخها المخطوطة، وينوي الاشتغال بتحقيقها ونشرها ولاسيما مقدمته العلمية الشهيرة التي كتبها لتقديم كتابه المعروف في التاريخ. وطال حديثنا وطاب في أمور مختلفة وتفاريق كثيرة. وامتد مجلسنا حتى علا صوت المؤذن بالنداء لصلاة العصر. فافترقنا على موعد باللقاء اليومَ التالي في المكان نفسه. وقد قرَّ في نفسي أنني أمام رجل عالم علَم من علماء تراث العرب والإسلام.

وانقضت أيام مؤتمر المستشرقين على خير، وانفض جمعهم ومضى كل أناس في سبيل إلى بلادهم. وعدت إلى مدينتي دمشق بفوائد جُلّى ومعارف شتى من لقاء العلماء، والاطلاع على أمور لم يكن لي بها علم قبل تلك الأيام. وانقطعت عني أخبار العلامة محمد بن تاويت الطنجي، وقد كدت أنساه في زحمة مشاغل الحياة ومشاكل الدنيا.

*****

ومرت الأيام حتى مضى عام من الزمان فانتدبتني وزارة التربية بدمشق لتدريس اللغة العربية في كلية الإلهيات بجامعة أنقرة في تركية. فسافرت وباشرت عملي هناك. وقضيت سنة كاملة في غربة بئيسة، وبرد شديد، وحنين أليم إلى دفء بلادي، وأنس أهلي وقرب أصدقائي.

وذات يوم في السنة الثانية من مقامي في أنقرة أرسل عميد الكلية من يستدعيني إليه لأمر مستعجل. فعجلت إليه في مقامه، فإذا أنا وجها لوجه والعلامة محمد بن تاويت الطنجي يقوم مسلماً علي طلق المحيا، مبتهج الأسارير. وبشرني العميد بأن قد قدم إلينا لتدريس علم الكلام الإسلامي في الكلية. وابتهجت أنا بلقائه وبالخبر الذي زفه إليّ العميد. وجلسنا جميعاً نتحدث في شؤون العلم وسير الدروس في الكلية. ثم خرجت بصحبته، وكأن الزمن الماضي منذ أول لقاء بيننا قد انطوى دفعة واحدة، وكأن افتراقنا لم يكن سوى من يوم واحد.

*****

ومضت الأيام وهي تقرّب بيني وبين العلامة محمد بن تاويت الطنجي، حتى صرنا لا يرانا الناس إلا معاً، وصار مثَلُنا كمثل طائرين غَرِيدين غريبين، وقعا متجاورين على فنن واحد في دوحة واحدة. وقد أنست به وأنس بي، فكان لي وطناً في غربتي، وأهلاً في وحدتي، وكنت له وطناً في غربته، وأهلاً في وحدته.

وكان لنا مجلس معروف نرتاده في عشيات الأيام، في مقهى كبير يعرف بالمقهى الكبير في الشارع العام وسط مدينة أنقرة. وهو شارع جميل طويل عريض، يخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب، تظلله صفوف مزدوجة من الأشجار الباسقة الخضراء، وتنتشر في جوانبه أحواض الورد والأزهار والأنوار من كل شكل ولون، فيبدو كأنه حديقة فسيحة غناء، للنزهة والترويح عن النفس في العشيات من عناء النهار وأعباء الحياة.

وكنا نسير في هذا الشارع الجميل الظليل أشواطاً، ثم نقصد مجلسنا المعهود في المقهى الكبير، لنزجي الوقت في حديث طويل ذي شجون لا تكاد تنتهي. وكان هذا المقهى ملتقى أهل العلم والأدب والفكر

والصحافة من الناس. وقد عرف القوم مجلسنا فيه وشاع أمرنا بينهم. فشرع الأساتذة وطلبة العلم في كليات الجامعة والكتاب والصحفيون ممن لهم اشتغال واهتمام بشؤون الإسلام والعالم العربي يأتون إلى مجلسنا بقصد العلم وتبادل الآراء في مسائل من تاريخ الإسلام، وقضايا في الدين وآيات القرآن، وأصول العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي عامة، أو تطوره خلال العصور حتى العصر الحاضر. فيستفيض الحديث بيننا، ويتشعب إلى دقائق وتفاصيل كثيرة. وتكبر الحلقة وتتسع حولنا. ويجلّي العلامة محمد بن تاويت الطنجي في الحديث، على اختلاف معانيه، وتشعب مجاريه، في كل وجه من الوجوه في أصناف المسائل، بكلام عذب كالماء الصافي يتدفق من ينبوع ثر غزير. ولهذا صار الناس ينادونه بالإمام الطنجي جرياً على عادة المسلمين الأولين في تبجيل علمائهم.

وكنت في تلك الأيام أشتغل في إعداد أطروحة لشهادة الدكتوراه في معهد اللغات الشرقية القديمة في كلية اللغات بجامعة أنقرة بإشراف المستشرق الألماني الأستاذ بروكلمان. وكان الإمام الطنجي مشغولاً بتحقيق بعض كتب التراث العربي القديم. فكانت هذ الجلسات المعهودة في عشيات الأيام فرصة لي أعرض فيها عليه ما جدَّ عندي من آراء وأحكام في موضوع أطروحتي. فيهتم للأمر، وينظر في أوراقي، وتبدأ بيننا جولة علمية ثرية. فنتفق في أمور أو نختلف. وقد نتجادل أحياناً، فيشتد بيننا الجدال حتى نرسي المسألة التي نتجادل فيها على قاعدة ثابتة نرضاها.

وكان الإمام الطنجي كثيراً ما يتأبط خيراً إلى هذه الجلسات يتمثل في أوراق كثيرة كتب فيها بخطه نصوصاً من الكتب التي يعنى بتصحيحها وتحقيقها. فيقرؤها عليّ، ويسألني في مسائل ومشاكل وقف عندها، ولم يقطع فيها برأي يرضاه. فأحتفل بسؤاله، وأنظر في أوراقه. وحسب العادة المعهودة قد نتفق في الرأي أو نختلف، وربما أخذنا في جدال يطول، أو يقصر حتى ننتهي إلى نتيجة نقنع بها كلانا ونشرب على منتهاها قهوة تركية كنا نهواها.

وأذكر أن الجدال قد احتدم بيننا يوماً وطال كثيراً حول كلمة «العُشْو» جمع الأعشى. فقد اختلفنا في صحتها : أهي العُشْوُ بالواو أم

العُشْيُ بالياء، أم يجوز فيها الوجهان؟ وكان الإمام الطنجي في سبيل تحقيق «كتاب المكاثرة عند المذاكرة» من تصنيف جعفر بن محمد بن جعفر الطيالسي[3]، وهو من علماء القرن الرابع الهجري. والكتاب جزء صغير في باب الشعر والشعراء، فرأى الأستاذ هذه الكلمة «العشي» ورأى أن يبقيها كذلك، ويكتبها بالياء في نسخته بخطه. ورأيت أنا أن الصحيح الذي لا يجوز غيره هو «العشو» بالواو، وأنه ينبغي له أن يصحح ما جاء في الأصل المخطوط. فاحتج هو بصحة الوجهين في هذه الكلمة لمجيء الفعل «عَشِيَ يَعْشى» في اللغة[4]. فيمكن لذلك أن يقال «العشي« بالياء. وكانت حجتي أن كلام العرب في هذه الكلمة قد جرى بقولهم : «العشو»، وأنهم لم يقولوا «العشي»، ولم يستعملوه البتة في كلامهم[5]. وطال بيننا الخلاف كما أسلفت، حتى رضينا بأن يُبْقي الكلمة في متن الكتاب مرسومة بالياء كما جاءت في الأصل المخطوط، وأن يشير في الهامش إلى ذلك، وينبّه القارئ كذلك إلى الغلط الواقع فيها. وهكذا «قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان»[6].

*****

كان الإمام الطنجي، إلى علمه الجم الغزير، يمتاز بأخلاق حميدة قلّ نظيرها في الناس. قد زيّنه الله أجمل زينة بصفات وخصال حسنة قلما يزيّن بها أحداً من عباده. عرفته رضِيُّ النفس، صادق الصداقة، خالص المد والمحبة، يؤثر السكينة والهدوء، صموتاً عن الخنى وهُجْر الكلام. وأجمل ما عرفت فيه من هذه الخصال الحميدة حسنى العفة التامة؛ عفة النفس وعفة اللسان وعفة اليد. كان صاحبي عفيف النفس، لم أعرف فيه يوماً حسداً لغيره من الناس في مال أو غيره من متاع الدنيا، ولم أشهد فيه غيْرَة من أحد لنعمة أتته بحق أو بغير حق، ولا

---

3 – طبع هذا الكتاب بتحقيقه في مجلة معهد الدراسات الشرقية بإستانبول، العدد الأول سنة 1956. وأُخِذَتْ عنها طبعة مستقلة في التاريخ نفسه.

4 – «لسان العرب» «عشا».

5 – المصدر نفسه.

---

6 – «سورة يوسف» 12\41.

غيظاً يحرق دم القلب، ويعمي بصيرة الإنسان، لشيء تشتهيه النفس فاته نواله. وكان عفيفَ اللسان، لم أسمعه يوماً يقع بسوء في الناس الذين يعرفهم، أو يغتاب أحداً بذميمة أونقيصة يعلمها فيه. وكان لا ينهر ولا يقهر الذين هم دونه في الشأن من جميع الناس، ولا يوجع مخاطبه إذا خالفه في الرأي. إنه كان مصفى اللسان من سوء القول. دأبه الدائم حسن القول وإجمال المعاملة في كل حالاته . وقد تجلت العفة فيه أجملَ ما تجلت وأبهاه في عفة اليد خاصة. وقد بلَوْت فيه هذه الميزة الجميلة بنفسي كثيراً. وشهدتها عنده مرة في مظهر رائع، أراني لا أستطيع أن أجوز ذكره لكم لروعته وطرافته معاً. وذلك أنني كنت على صلة وثيقة بالكتبي الشهير في تلك الأيام قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنىّ في بغداد. أطلب منه الكتب المختلفة لي ولخزانة كلية الإلهيات، ولمن شاء من الأساتذة والطلبة فيها. وأرسل إليه كذلك ما يريد من الكتب المطبوعة في تركية، ولاسيما الكتب النادرة التي طبعت قديماً بمدينة إستانبول في العهد العثماني من التراث العربي والإسلامي في مطبعة الجوائب وغيرها. فطلب مني هذا الكتبي مرة أن أرسل إليه عدداً كبيراً من كتاب «شفاء السائل في تهذيب المسائل» لعبد الرحمن بن خلدون طبعة كلية الإلهيات بتحقيق الإمام الطنجي. ولم يكن في يدي من المال حينذاك ما أفي به ثمن هذا العدد الكبير المطلوب من الكتاب. فكلمت القيّم على خزانة الكلية في أخراج الكتب وإرسالها إلى بغداد من غير إجراء إداري رسمي، على أن نتم هذا الإجراء بعد وصول ثمن الكتب من الكتبي البغدادي. فوافق الرجل على مطلبي، وكان طيب السريرة كامل الثقة بي. وهكذا أرسلنا الكتب المطلوبة فعلاً إلى بغداد من غير أن نحسب للعواقب حساباً.

وبعد أيام قليلة وقع ما لم يكن في الحسبان. فقد جاء أمر إداري بنقل الرجل الطيب قيّم الخزانة إلى وظيفة أخرى بمدينة نائية في هضبات الأناضول. فجاءني الرجل الطيب هلِعاً ملتاعاً، وطلب مني أن أكتم أمره وأن أسكت عن إخراج الكتب من خَزانة الكلية من غير إجراء رسمي. فلم يسعني إزاء أزمة الرجل وهلعه إلا أن أوافقه على ما طلب دونما أن أنسى أنني كنت أنا سبب هذه الأزمة في الأصل. وفارقنا الرجل الطيب، وذهب إلى مكان عمله الجديد راضياً مطمئناً، واثقاً

بعهدي.

ووصلني ثمن الكتب من بغداد، وهو مال وفير. فتحيرت في أمري، ماذا أصنع بهذا المال؟ وصرت أنام وأصحو على حيرتي وفكري فيه. ثم بدا لي رأي في الأمر، ذلك أنني قلت : إن هذا المال لهو ثمن هذا الكتاب الذي كان دفيناً لا يعرفه، ولا يراه أحد من الناس. فبعثه الإمام الطنجي من رقدته الطويلة في العتمة، وأحياه ثانية بتحقيقه وطبعه ونشره بين الناس. وهو لذلك أحق من غيره بهذا المال. راقت لي الفكرة، واقتنعت بما ارتأيت. فهُرِعْت إلى صاحبي، ووضعت المال بين يديه، وأخبرته خبره، وبينت له رأيي في شأنه. فتعجب من رأيي وتبسّم ضاحكاً، ثم قال : أنا أخذت حقي من كلية الإلهيات لقاء تحقيقي الكتاب. وردّ رأيي لا يقبله، وردّ المال وأقسم لا يأخذه مني.

ولما أعياني أمره قلت : فأفتني كيف أصنع بهذا المال؟ فأطرق وفكر ملياً. ثم قال : تسمع مني؟ قلت : أسمع. قال : اذهب واشتر بجزء من هذا المال عدداً من أمهات كتب التراث الإسلامي، وأهدها إلى خزانة كلية الإلهيات. ثم اشتر بجزء آخر منه زربية، وأهدها إلى مسجد الحومة. وكان في الحومة التي نسكن فيها مسجد كبير، بُني من أموال المحسنين. ثم قال : وخذ أنت البقية من هذه البركة أجراً لك على صنيعك في إرسال الكتب إلى بغداد، وعلى صنيعك في شراء الكتب الأخرى وشراء الزربية وكُلْفتك في ذلك جميعه.

ولم أر بداً من قبول فتوى صاحبي الإمام الطنجي. وذهبت حقاً فاشتريت بضعة عشر كتاباً من أمهات كتب الإسلام، بينها الكتاب الكبير في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ونسخة نفيسة خزائنية من صحيح الإمام البخاري أمر بطبعها على نفقته من ماله الخاص السلطان عبد الحميد العثماني. وأهديتها جميعاً إلى خزانة كلية الإلهيات.

ثم ذهبت إلى القيّم على شؤون الحومة، وسألته إذا كانوا في حاجة إلى زربية في المسجد. فعلمت منه أنهم لا يحتاجون إلى شيء وأن المحسنين قد تكفلوا بكل حاجات المسجد من الزرابي وسواها من الأشياء.

وهنا لاحت لي خطة طبت بها نفساً. فذهبت واشتريت زربية

نفيسة وطاقة كبيرة من الورد والأنوار. وحملتها إلى منزل الإمام الطنجي، وكان حديث العهد بالزواج. وأريته أنني حملت إليه الزربية وطاقة الأنوار هديةً مني احتفالاً بزواجه. والحق أنني اشتريت الزربية ودفعت ثمنها من المال الذي جاءني من الكتبي من بغداد. وفرح صاحبي بزيارتي وبهديتي، ولم يفطن لحيلتي. وفرحت زوجه السيدة نجلاء وعبّرت عن فرحتها قائلة : نحن غريبان هنا، لا يعرفنا أحد في هذا البلد. فأنا من مدينة إستانبول، وأهلي كلهم هناك، وهو من بلد في أقصى الأرض. فليس لنا صديق يزورنا، ولا جيران يسألون عنا. ولم يأتنا أحد بهدية سواك.

وأعجبت الزربية الجديدة الزوجين كليهما، فأخذا يجرانها، في فرح وسرور، من حجرة إلى أخرى في أنحاء المنزل، ليريا المكان الذي تلائمه وتليق به.

وخرجت من منزل الزوجين السعيدين أسائل نفسي : هل أنا آثم في الذي فعلت، أم أنا محسن فيه؟ لكنني أذكر أنني كنت فرحانَ جذلانَ لفرحة هذين الزوجين، وبما صنعت لإسعادهما، أداري نفسي وأقول : لا ريب أن عفو الله تعالى سيسع مثل هذا الإثم إن كنت آثماً حقاً.

*****

وبعد أيها الحفل الكريم فإن مجاري الكلام تطول، ولا تكاد تنتهي إن أنا استرسلت في الحديث عن صاحبي وصديقي العلامة محمد بن تاويت الطنجي رجل العلم والأخلاق. ولست في حاجة إلى طول الكلام للتعريف به، فهو العالم العلم الغني عن ذلك. ولهذا أحبس عن القول هنا، وأكتفي بما قلت، وأرى فيه كفاية في هذا المقام. ورحم الله صاحبي رحمة واسعة وأرضاه، وجعل الجنة مثواه، في أكرم جوار، مع الصديقين والأبرار.

*****

هذا وكان صاحبي العلامة مغرماً غراماً شديداً بآثار تراثنا القديم في مختلف علومه وفنونه. يهتم بمخطوطاتها اهتماماً كبيراً، ويتتبعها في كل مكان، ويسعى للاطلاع عليها. وكان لذلك على علم واسع بذخائرها ونفائسها المكنونة في خزائن العالم، ولا سيما خزائن مدينة إستانبول، ويطيب لي اليوم أن أقرأ لكم قصيدة فريدة مجهولة من

الشعرالقديم وأن أقدمها في هذا الحفل الكريم، إحياء لذكرى صاحبي وإتحافاً لروحه في عليين عند ذي العرش العظيم، وإكراماً وتذكيراً بغرامه بتراثنا القديم، وإشادة مني بسعيه وجهده في إحياء جملة من آثاره.

هذه القصيدة تحفة نفيسة من الشعر القديم. وجدتها مكتوبة في آخر مخطوطة «كتاب المراثي» لأبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة 310 بعد تمام متن الكتاب. وهي المخطوطة الفريدة لهذا الكتاب. كتبها الخطاط المعروف أبو الحسن محمد بن أسد بن علي القارئ الكاتب المتوفى سنة 410. وهو شيخ الخطاط المشهور أبي الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب والمتوفى سنة 423. وقال إنه نقلها من نسخة بخط أبي عبد الله الحسن بن علي بن مقلة الكاتب الأديب صاحب الخط المليح المتوفى سنة 338. وهو أخو الوزير الأديب أبي علي محمد بن علي بن مقلة المتوفى سنة 328.

قال محمد بن أسد إنه بدأ كتابة هذه النسخة من الكتاب سنة 368 وأتم كتابتها سنة 370. ثم كتب هذه القصيدة العزيزة بخطه في آخرها. وقال في تقديمها : «في آخر شعر الأسود بن يَعْفُرَ بخط أبي عبد الله بن مُقْلَةَ ما ذكر أنه عن ابن الأعرابي. وقال أبو الشعر الهلالي : أنشدَناها[7] ابن حبيب».

وابن الأعرابي الذي رُويت عنه هذه القصيدة هو أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي، من شيوخ العربية في القرن الثالث، توفي في الكوفة سنة 231. ذكره أبو بكر الزبيدي في الطبقة الثانية من اللغويين الكوفيين. وابن حبيب الذي أنشد أصحابَه القصيدةَ هو أبو جعفر محمد بن حبيب من علماء القرن الثالث في الكوفة. كان يروي عن أبي عبد الله ابن الأعرابي. ذكره أبو بكر الزبيدي في الطبقة الرابعة من اللغويين الكوفيين. أما أبو الشعر الهلالي الذي سمع القصيدة من محمد بن حبيب فالظاهر، فيما نرى، أنه أعرابي فصيح من الأعراب الفصحاء الذين كانوا يفدون من البادية إلى الأمصار الإسلامية في العراق، مثل البصرة والكوفة وبغداد. فيأخذ العلماء

---

7 - في هامش الأصل المخطوط : «أملّها» وهي بمعنى : أملاها. أي أملاها ابن حبيب.

عنهم اللغة والشعر وغير ذلك من فنون العلم في العربية. ومن هؤلاء الأعراب الفصحاء أبو مسحل الأعرابي عبد الوهاب بن حريش، صاحب «كتاب النوادر»[8] في اللغة. وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرةَ، وهو راوية أبي البيداء الرياحي. وأبو زياد الكلابي يزيد بن عبد الله بن النديم البغدادي في كتاب «الفهرست» وغيرهم من الأعراب الفصحاء، وذكر رواية العلماء اللغةَ والأشعارَ عنهم[9].

أما الشاعر صاحب القصيدة فغير معروف لم يسمِّه أبو عبد الله ابن الأعرابي الذي رُوِيت عنه القصيدة كما قال أبو عبد الله ابن مُقْلة الذي كتب القصيدة بخطه في آخر شعر الأسود بن يعفر. وكذلك لم يسمِّه محمد بن حبيب الذي أنشد أصحابَه القصيدةَ، وسمعه أبو الشعر الهلالي الأعرابي. ونرى أن هذين العالمين الكبيرين لم يعرفا هذا الشاعر، فبقي اسمه لذلك مجهولاً منذ القديم. والظاهر أنه شاعر مخضرم من الشعراء المقلين الذين عاشوا في أول عهد الإسلام يدعوني إلى القول بهذا الرأي أبيات من القصيدة تظهر فيها آثار من روح الإسلام وعبارات وتراكيب تنظر إلى آيات معلومة من القرآن في مبانيها وفي معانيها.

ولقد اجتهدت في البحث عن هذه القصيدة طويلاً في مصادر تراثنا القديم من أقصى العصور. فلم أعثر لها على ذكر ولا أثر. فهي ليست في دواوين الشعراء الكثيرة التي نظرت فيها. ويبدو أنها شردت منذ القرن الثالث من الهجرة، فضاعت وغابت عن عيون علماء اللغة والأدب في القديم، فلم تجد سبيلاً إلى كتبهم، كاملة أو متفرقة في تضاعيفها، على وفرة هذه الكتب التي ألفوها، وهي تزخر بنصوص وافرة من الشعر القديم الذي قيل في الجاهلية والإسلام. ولم يذكرها كذلك علماء الشعر من أصحاب الاختيارات الشعرية، على اختلاف مذاهبهم في الاختيار، طوال العصور المتوالية. وعلى طول البحث والتنقيب في كل مصدر لم أعثر لها على ذكر ولا أثر كما قلت آنفاً. وبقيت هذه القصيدة مجهولة مطوية في طيات كتاب «المراثي» لأبي

8 – طبع هذا الكتاب بتحقيق الدكتور عزة حسن في مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة 1960.

9 – «الفهرست» لابن النديم 44–46.

عبد الله محمد بن العباس اليزيدي، كما بقي هذا الكتاب نفسه حبيساً في رفوف خزائن الكتب المعتمة قروناً طوالاً إلى أيامنا الحاضرة.

وقد طبع كتاب «المراثي» باسم «كتاب الأمالي» في دائرة المعارق العثمانية بمدينة حيدر آباد الدكَن في الهند سنة 1369 من الهجرة اعتماداً على نسخة أعدها للنشر المستشرق كِرِنْكو عن المخطوطة الفريدة. وطبعت هذه القصيدة في آخر الكتاب، من غير ضبط ولا تحقيق، ومن غير أن يقول المستشرق فيها شيئاً البتة. وأظن ظناً أنه قد خاب نظره، كما قد خاب نظري، في البحث والتنقيب عنها في المصادر القديمة. فلم يمكن له أن يقول شيئاً في هذا الباب.

*****

وهذا نص القصيدة :

1 – جَدَّ الرحيلُ وما قضَّيْتُ حاجاتي — وما التخاير[10] إلا في المُلِمّاتِ

2 – إني أرى الدهر قد عزَّتْ مكاسبُه — والناسَ قد أصبحوا أولادَ عَلاَّتِ[11]

3 – إن الحَزازاتِ يُحْيِيها تذكُّرُها — وفي التفاضي شفاءٌ للحزازات

4 – منَّتْكَ نفسُك أقواماً وعطفَهُمُ — لما رُمِيتَ بأحداث مُلِحّاتِ

5 – ما كان ما وَعَدَتْك النفسُ خاليةً — إلا عِداتِ غُرورٍ مُضْمَحِلاَّتِ

6 – والدهرُ مؤتَنِفٌ[12]، تأتي حوادثُه — باليُسْرِ طوراً، وبالاقتدارات

*****

---

10 – في الأصل المخطوط : التخابر.

التخاير : نراه بمعنى التفاضل، أي التفاضل بين الناس في فعل الخير في الملمات.

11 – أولاد العلات : هم بنو رجل واحد من أمهات شتى. والعَلَّة : هي الضَرَّة أي ضرة المرأة. وتستعمل هذه العبارة في الجماعة المختلفين.

12 – الدهر مؤتنف : أي يأتنف ويستانف حوادثه.

7 – تَعْلَمَنْ أنَّ أخلاقَ النَّدَى كرمٌ
وأنما البخلُ من لؤم السَّجيّاتِ

8 – وأن للجود أحياناً يُنال به
وأنّ للبخل والإمساك ساعاتِ

*****

9 – يا نَفْسِ، صبراً على ما كان [من][13] حَدَثٍ
فكلّ ما هو مَقْضيٌّ لنا آتِ

10 – وَطَّنْتُ للصبر نفساً طال ما عزَفَتْ
على الخطوب من الدهر المُمِرّاتِ[14]

11– فلم أكن عند نَوْباتِ الغِنى بَطِراً
ولم أكن جَزِعاً عند الشديداتِ

12 – لقد علمتُ، وخَيْرُ العلم أنفعهُ،
أني إلى أجل يأتي وميقاتِ

13 – أني رهينةُ يوم لستُ سابقَه
والموت أبصر من نفسي بِغِرّاتِ

*****

14 – نال الثراءَ رجالٌ بعد فاقتهمْ
فالحمدُ لله جبّار السماواتِ

15 – قومٌ مَحَلُّهمُ دانٍ، ونَصْرُهُمُ
ناءٍ، وفي الناس أحياءٌ كأمواتِ

16 – لا يَنْعَشون كريماً عند عَثْرتِه
ولا يُطيقون دَفْعاً للعظيماتِ[15]

17 – كالأُسدِ ما أُلبِسوا أمناً، وإن فزِعوا
طاروا بألباب آمٍ[16] مُسْتعاراتِ

*****

13 – زيادة يقتضيها السياق.
14 – الخطوب الممرات : أي الشديدة المُرّة. من قولهم : أمَرَّ الشيءُ، إذا كان مُرّاً، أي من المرارة ضد الحلاوة.
15 – العظيمات : أي الخطوب العظيمات.
16 – الآم : جمع الأمة، وهي المرأة المملوكة، خلاف الحرة.

18 – قومي أولئك، لا أبْغي بهمْ بَدَلاً

قومي معادنُ أحلامٍ وسَوْرات[17]

19 – قومي همُ آفةُ الجيش المُنيخ بهمْ

وعِصْمةُ المُجْتدي والطارق الشاتي[18]

20 – يومانِ ضِفْناهما الأقوامَ، يومُ ندىً،

ويومُ ألويةٍ تَهوي ورايات[19]

21 – كلٌّ له ساسةٌ منها محافظةٌ

على الطرائف منها والتليدات

22 – وآخَرينَ، إذا كانت مُزاحَفةٌ،

يَمْشونَ في البيْض والبِيض المُفاضات[20]

23 – أين الذين همُ يُنْفَى العدوُّ بهمْ

عنّا، ويُقمَعُ جد الجائر العاتي

*****

24 – إني فَرَعْتُ الذُّرى من ذِرْوةٍ فَرَعَتْ

شُمُّ الجبال من الشُّمّ المنيفات[21]

25 – كم فيهمُ من فتىً تُرْجَى نَوافِلُهُ

ومنهمُ مَنْ يُغادَى بالتحيّات[22]

*****

---

17 – الأحلام جمع الحِلْم، وهو العقل والأناة في الأمور. والسورات : جمع السَّوْرة، وهي السطوة والحِدَّة. جعل الشاعر الأحلام ضد السورات.

18 – الطارق الشاتي : هو الضيف أو الفقير الذي يطرق القوم أي يأتيهم ليلاً في زمن الشتاء طلباً للعون والقوت. والشتاء هو زمن الشدة والضيق وقلة القوت عندهم. فكانوا يستحسنون الجود فيه ويفاخرون به!

19 – ضفناهما الأقوام : أي ضفنا فيهما الأقوام، بمعنى : أنزلناهم ضيفاً علينا. ويوم ألوية تهوي : هذه صورة شعرية، كناية عن يوم الحرب التي ترفع فيها الألوية والرايات.

20 – مزاحفة : أي زحف للقتال. والبيض : جمع بيضة، وهي بيضة الحديد التي يلبسها المحارب في رأسه. والبيض المفاضات : هي الدروع البيض الواسعة.

21 – فرعت : أي علوت. وفرعت الذرى : صورة شعرية، كناية عن رفعة الشأن وعلو القدر وسبق الناس في المجد والشرف.

22 – نوافله : أي عطاياه، واحدها نافلة. ويغادي بالتحيات : صورة شعرية، كناية عن الشرف. يعني أن الناس يغادونه بالتحيات لشرفه ورئاسته فيهم.

ونرى في القصيدة قسمين اثنين حسب معانيها وصورها العامة. ونرى أن جُماع المعاني كما سمعنا في القسم الأول مجموعة طيبة من الحكم والوصايا والمواعظ والإرشاد استقاها الشاعر من خبرته الدهرَ ومعرفته الناسَ وتجاربه في الحياة. يقول :

إني أرى الدهرَ قد عزت مكاسبه

والناسَ قد أصبحوا أولادَ عَلّاتِ

وقد أورد هذه المعاني في صور وجيزة، ممزوجة بأثر من الحزن الدفين في أعماق نفسه، وملفوفة بالشكوى المريرة من خطوب الدهر وأحداثه التي تنزل بالإنسان، وتصيبه بالآلام والشعور بخيبة الآمال في الناس والعيش في الدنيا. يقول :

منتك نفسك أقواماً وعطفهمُ

لما رميت بأحداث ملحات

ما كان ما وعدتك النفس خالية

إلا عداتِ غرور مضمحلات

وهو يدعو نفسه بعد ذلك للصبر والتجلد إزاء هذه الخطوب والأحداث. يقول :

يانفسِ، صبراً على ما كان من حدث

فكل ما هو مقضي لنا آت

وطنت للصبر نفساً طال ما عزفت

على الخطوب من الدهر الممرات

ثم يذم الرجال الذين ينالون الثراء بعد الفاقة فيؤثرون أنفسهم بالخير، ويحتبسونه ويتنعمون به من دون الناس. ويراهم لا ينعشون كريماً في عثرته، ولا يعينون فقيراً في عسرته. يقول :

نال الثراء رجال بعد فاقتهم

فالحمد لله جبار السماوات

لا ينعشون كريماً عند عثرته

ولا يطيقون دفعاً للعظيمات

وبعد هذه المعاني الدائرة في ظلال الألم والشكوى يأخذ الشاعر في القسم الثاني من القصيدة. ونراه هنا ينتعش ويستشعر العز

والفرح معتزاً متباهياً بالفخر العريض بقومه الذين يجعلهم أصحاب الحلم والمجد، وينعتهم بالجود والعطاء، في أيام السلم وبالشجاعة في الحروب ولقاء العدو تحت الرايات. يقول :

قومي همُ آفة الجيش المنيخ بهم
وعصمة المجتدي والطارق الشاتي

يومان ضفانهما الأقوام، يوم ندى،
ويوم ألوية تهوي ورايات

ويختم أقواله أخيراً في نشوة واعتزاز بالفخار بشرف نفسه وأصالة أهله، ورفعة شأنهم وعلو قدرهم بين الناس مثلَ ذروة عالية في شم الجبال. يقول :

إني فرعت الذرى من ذروة فرعت
شم الجبال من الشم المنيفات

والغاية الفنية القصوى التي يرمي إليها الشاعر من وراء كل هذه المعاني والصور هي دعوة الناس إلى اختيار الفضائل الحميدة والقيم السامية في الدنيا، والاعتبار بأحداث الدهر وخطوبه، وتغير الأحوال مع الأيام، ودفعُهم إلى نبذ خصال السوء. وتلك جدوى الفنون الجميلة في الحياة. إنها تعمل لسعادة الإنسان. ومنها فن الشعر، بل هو أجملها وأجداها.